

دعوة لتطوير التعليم الجامعى

بقلم

أحمد عبده السلام عبده الخفاجر

الحديث عن الجامعة و عن التعليم الجامعى و العالى حديث له أهمية ، وخاصة فى هذه المرحلة التى تمر بها مصر . فلا شك فى أن هناك كثير من التغيرات الجذرية التى يمر بها المجتمع المصرى ، و التى تستوجب التغير فى المنظومة الجامعية . ومن البدهى أن تتواكب الجامعة فى حركتها و ما يحدث فيها من نشاط و ما يطرأ عليها من تغيير مع ما يمر به المجتمع الذى تقوم على خدمته من تغيير و تطور . وتمر مصر اليوم بمرحلة تغير جذرى من حيث الازمات السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية ، فقد استقر نظام الحكم على الاسلوب الديمقراطى الذى يقوم على الاحزاب المتعددة و الذى تحترم فيه حقوق الانسان و تقدر قيمته و الذى يستمتع فيه الفرد بحرية فى انتهاج ما يراه من أساليب معيشية شرط الاتناقض مع ما يتفق عليه المجتمع من قيم و تقاليد و نظم و عادات .

اتفق المجتمع على أن تقلل الدولة من سيطرتها على المجالات الاقتصادية المختلفة ، وأن تفسح للمستثمرين فى أن يستثمروا أموالهم فى قطاعات لا ينبغى للدولة أن تتدخل فيها ، وأن يستثمر المصريون أموالهم فى سوق تخضع لقواعده و قوانينه الطبيعية و هو ما أطلق عليه " أن ندع السوق يعمل وفقا لآلياته "

هو حق الانسان فى الحرية الاقتصادية طالما لا تؤدى إلى إيذاء الآخرين و الحرية فى طبيعتها لا تؤدى إلى الأضرار بالانسان طالما التزم الانسان بحدودها وهكذا أصبحت مصر مجتمعا ديمقراطيا يؤمن بحرية الكلمة و تعدد الاحزاب ، يعطى الحرية للأسواق تعمل وفق ألياتها و قواعدها ، لا تتدخل الدولة فى شئون الناس إلا بالقدر الذى يحفظ و يحافظ على المجتمع بتقاليد و عادات و قيمه .

و تختلف هذه الصورة على ما كان على المجتمع المصرى من قبل ، لقد كان مجتمعا شموليا مسرفا فى مركزيته ، تسيطر فيه الدولة على كل شئ ، على كل

مجريات الأمور الاقتصادية كانت او سياسية او اجتماعية

و يصبح من المنطقي أن تختلف صورة الجامعة عما كانت عليه ، فهناك فرق كبير بين جامعة تنشئ ابناءها في ظل نظام شمولي وجامعة تنشئ ابناءها لمجتمع ديمقراطي هناك اختلاف في اهداف كل منها ، وهناك تباين في اساليبها و انواع انشطتها

و يقول المتخصصون أن للجامعة ثلاث مجموعات من الأهداف ، و نستطيع أن نلخصها فيما يلي :

١) اهداف معرفية ، وهي تتناول ما يرتبط بالمعرفة تطورا أو تطويرا أو انتشارا

٢) اهداف اجتماعية ، والتي من شأنها أن تعمل علي استقرار المجتمع و تماسكه و نمده و تخطي ما يواجهه من مشكلات اجتماعية .

٣) اهداف اقتصادية : و التي من شأنها أن تعمل على تطوير اقتصاد المجتمع و العمل على تزويده بما يحتاج اليه من خامات بشرية وما يحتاج اليه من خبرات على معاونته للتغلب على مشكلاته الاقتصادية، وتنمية ما يحتاج اليه من مهارات وقيم اقتصادية.

و هكذا يبدو ان اهداف الجامعات هي المجتمعات الديمقراطية لا بد أن يختلف عن اهدافها في المجتمعات الشمولية لما بين هذين النوعين من المجتمعات من اختلافات و نحن ايضا نحتاج إلى اعادة صياغة اهدافنا التعليمية بما يتناسب مع ما حدث من تغير في اوضاع العالم .

و اذكرهنا أن العالم اليوم غير عالم الأمس . كان العالم بالأمن مقسما إلى قسمين ، شرق و غرب وبينهما مجموعة من الدول يطلق عليها دول العالم النامي و كانت هذه الدول تلعب لعبة معروفة و متفق عليها بين الشرق و الغرب . و تارة تتجه دولة نامية الى الشرق و تارة تتجه إلى الغرب ، و هذه لعبة سياسية اتفق عليها العالم ، ولم ندرك أن حركتنا لم تكن قاصرة على المجالات السياسية و الاقتصادية فقط بل تجاوزتها الى المجال التنافسي حتى أصبحت ثقافتنا غير محدودة المعالم ، أكثر من ذلك نحن نعاني من ظاهرة غريبة ، البعض من الناس يعيشون ثقافة أجنبية بكل معانيها

وكل أركانها بدءاً من وسائل وأساليب المعيشة الى أنواع الفنون و الاداب إلى معايير وعادات و نماذج سلوكية غربية بينما يعيش البعض ثقافة قد تتصف بأنها ثقافة مصرية عربية ، والبعض الاخر يعيش ثقافة هي مزج بين النوعين ، وهي مسخ لكل نوع على حدة .

وتغير العالم اليوم ، انقسم بصورة أخرى ، أصبح هناك شمال وجنوب واختفى التقسيم السابق ، وأصبحت هناك فى العالم قوة واحدة بدلا من قوتين ، وعلى الرغم من أن هناك بعض التكتلات الاقتصادية فى أماكن متفرقة فى العالم ، الا أن هذه التكتلات يسهل أحتواؤها من القوة الوحيدة فى العالم وهي القوة الامريكية ، فوجدوا هذه التكتلات من قواعد اللعبة السياسية الدولية .

و الذى يعيننا فى مصر أن نقول أن العالم أصبح شمالا وجنوبا ، الشمال هو المتقدم، وهو القوى وهو من له تأثير ، الشمال يسود . الجنوب هو الأضعف ، وهو التابع نحن فى مصر فى موقف غريب ، نحن أمه وسط بين الشمال و الجنوب، ونود أن نحافظ بهذا الموقع ، لقد خلقنا الله أمه وسطاً ، ونحن نود أن نحافظ على هذا الموقع ، وهو ليس موقع جغرافى فقط ، وهو موقع سياسى، إقتصادى ، ثقافى . ونحن مجتمع قديم وله ثقافة العريقة بل لا تعالى إن قلنا أن الثقافة المصرية أقدم الثقافات و أكثرها تأثيرا على حضارة الانسان ، ونحن مجتمع له فضل على البشرية فى تطورها، لقد قدمنا أقدم وأروع ثقافة، ثم عدنا لنحافظ للبشرية على ثقافة الانسان فى وقت الظلام فى أوروبا ، و أعدناها بعد أن طورناها ، ونحن مجتمع شرف بالاديان السماوية بين أهله ، وازداد شرفه بالاسلام ، ونحن لا نود أن نعامل معاملة بول الجنوب حتى لا نصبح سوقا لدول الشمال ، يسوق فيها كل شئ بدءاً من وسائل الحياة وتكنولوجياها إلى الفنون و القيم و السلوكيات و العادات . نحن لا نود أن نفقد هويتنا الثقافية ولانود أيضاً أن نفقد هويتنا الوطنية.

ونحن لا نود أن نتجة إلى الشمال فنوته فى ثقافة غربية عن ثقافتنا ونخشى أن نصبح مسخا لهم، مرة أخرى نحن نود أن نحافظ على هويتنا الوطنى و الثقافية . فهذا حق مصر ، حق الاجيال السابقة و ليس من حق أى جيل أن يخل بما أنتمنتة عليه

الاجيال السابقة.

وهكذا نحن نود أن نحافظ على موقعا فريدا وصعبا ، موقعا متفردا ووسطا بين دول العالم ، ننتفتح فية على العالم كله و نتحاور مع العالم كله ولانفقد أنفسنا فى أى مرحلة من هذه المراحل .

وهذا وضع يختلف عما مارسناه من سنوات مضت ، ألا يستحق هذا أن نعيد النظر فى أهدافنا من التعليم الجامعى وممارستنا وما نقدمه من خدمات إلى أبنائنا . نحن نعيش فى خضم التغييرات، ذكرنا منها اثنين فقط أحدهما داخلى والآخر خارجى ووجدوا أحدهما منفردا يتم إعادة النظر فى منظومة التعليم كلها ، فما بالنا وهناك العديد من هذه التغييرات التى تتصدى ما ذكرناه ، سواء فيما يحدث من إعادة تنظيم للفكر العالمى وتنظيرة إلى إعادة صياغة أساليب الحياة العقلية ومحتواها ، إلى ما يحدث من تغيرات فى اتجاهات الانسان ونحو الحياة ذاتها . مرة أخرى الانستحق كرجال جامعات أن نجتمع سويا لنتحدث فيما نقدمه من خدمات إلى أبنائنا فى الجامعات المصرية .

الجامعات ليست خزائن كتب ، الجامعات مراكز فكر وتنوير ، الجامعات مراكز إشعاع و تطوير، الجامعات برجالها فيما يقدمونه من علم وفكر متطور يقود المجتمع و يعمل على نمو الوطن. الجامعات فيما تقدمه من خدمات لأبنائنا بما يحقق لهم النمو المتكامل وبما يعمل على رقى مصر وأزدهار الحياة فيها ، الجامعات فيما تقدمه من حلول لمشكلات يعانى منها المجتمع فى مجالاته المختلفة بما يحفظ على استقرار مصر و الحفاظ على هوية المصريين كمجتمع صاحب أفضال على العالم رغم ما يعانىه من صعوبات اقتصادية .

أليس من حق مصر أن تطلب من جامعاتها أن تعلم وتربى ابناءها إلى الانسان الحر المتكامل المسئول فى ممارسته لحرية ، اليس من حق مصر أن تطلب من جامعاتها أن تعلم ابنائها أن المجتمعات لا تنمو إلا بحب أبنائها لها ورغبتهم فى تقديم خدماتهم إليها ، و ادراك ابنائها أن خدمة مصر باخلاص و اقتدار هو نوع من الحياة لنا ، اليس من حقنا أن نعلم ابنائنا أن حياتنا فى حياة مصر و أن خدماتنا إلى مصر جزء من فضلها علينا و ليس منة منا ، أليس من حقنا ان نعلم ابنائنا الحفاظ على مصر

ليس من واجب الجامعات أن تعمل على ترسيخ الهدية الوطنية بين أبنائها ، ليس من واجبها أن تدعم مشاعر و احساس الانتماء بين ابنائنا إلى مصر .

ليس من واجب الجامعة أن تعمل على تنمية الانسان الفكر الواعى الحر، المسئول الذى يخشى الله و يتقيه فى كل ما يقوم به من عمل ، الانسان الذى يقبل على التعلم مستقلا بنفسه معتمد على ذاته ، الانسان التلقائى فى سلوكه ، المبادر فى تفكيره ، الذى يستطيع أن يتحمل مسئولية ما يقدمه من فكر و عمل .

ليس من الافضل أن نعلم أبنائنا أن يقبلوا على المعرفة بكل جوانبها وأن نعلمهم كيف يصلون إلى مصادر المعرفة، و كيف يتعاملون معها و يفكرون فيها و ينقدون ما يتعرضون لها من فكر و يبحثون فيه من معرفة ، بدلا من أن نحيلهم أو نجعل منهم خزائن كتب ، و بالقطع خزائن ضعيفة قاصرة لا تستوعب إلا النزر اليسير المتغير السريع المتغير من معرفة .

ليس من حق أبنائنا أن نعلمهم كيف يعيشون فى مجتمع ديمقراطى وكيف يختلفون فى الرأى وكيف يقبلون هذه الاختلافات ، الحياة فى المجتمعات الديمقراطية ، لها أساليبها وقواعدها وقيمها ومن حق ابنائنا علينا أن نعلمهم هذه الامور وأن نعلمهم كيف يدافعون عنها إن كان ثم ما يستدعى ذلك .

الحياة فى المجتمعات التى تقدم على قدر من الاحزاب تختلف عن تلك التى تسمح برأى واحد فقط وندوة سياسية واحدة وحزب واحد أو ما سمي بالشمولية فى نظام الحكم ، ليس من حق أبنائنا علينا أن نعلمهم هذه الفروق ، وان نتحدث معهم فى القضايا الوطنية والاقتصادية والاجتماعية وبصفة عامة القضايا القومية ، وأن نقاش معهم هذه الامور بدلا من أن نترك بعضهم فريسة لقوى لا ترضى عنها كمصريين ، أو نترك بعضهم يغترب عنا و يعيش حياة لا يهتم فيها إلا فيما يمسه هو . ليس من واجبنا أن نعلم أبنائنا أن يعيشوا مستقبل مصر ، ويقوبون مصر فى مستقبلها .

نعم : نحن نحتاج إلى مجتمع سويا كرجال جامعات ونطرح هذه القضايا ونناقشها ، لأننا فى حاجة شديدة إلى تطوير التعليم الجامعى كمنظومة فرعية بكل مكوناتها ، تطوير التعليم الجامعى قضية تهم المصريين جميعا ، وهذا هو أنسب وقت

لتطوير الجامعات ، فقد أعلن السيد رئيس الجمهورية أن المرحلة القادمة حتى نهاية القرن العشرين هي مرحلة تطوير التعليم ، هو المشروع القومي الذي ينبغي أن ننهض به جميعاً وأن نسهم في نجاحه ، وتطوير الجامعات لا يأتي إلا من داخل الجامعات ذاتها ، فهل يمكن أن ندعو زملائنا في الجامعة إلى لقاء نتحدث فيه بشأن جامعتنا .